موت أم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

رجعت من الجنازة بعد أن غبرت قدمي ساعة في الطريق التي ترابها تراب وأشعة ، وكانت في النعش لؤلؤة آدمية محطَّمة هي زوجة صديق طحطحتها الأمراض ففرقتها بين علل الموت ، وكان قلبها يحييها فأخذ يهلكها ، حتى إذا دنا أن يقضي عليها رحمها الله فقضى فيها قضاءه . ومن ذا الذي مات له مريض بالقلب ولم يره من قلبه في علته كالعصفورة التي تهتلك تحت عيني ثعبان سلط عليها سموم عينيه !

كانت المسكينة في الخامسة والعشرين من سنها ، أما قلبها ففي الثمانين أو فوق ذلك ؛ هي في سن الشباب وهو متهدم في سن الموت .

وكانت فاضلة تقية صالحة ، لم تتعلم ولكن علمها التقوى والفضيلة . وأكمل النساء عندي ليست هي التي ملأت عينيها من الكتب فهي تنظر الى الحياة نظرات تحيل مشاكل وتخلق مشاكل ؛ ولكنها تلك التي تنظر الى الدنيا بعين متلألئة بنور الايمان تقرّ في كل شيء معناه السماوي فتؤمن بأحزانها وأفراحها معاً ، وتأخذ ما تعطى من يد خالقها ، رحمة معروفة أو رحمة مجهولة . هذه عندي تسمى امرأة ، ومعناها المعبد القدسي ؛ وتكون الزوجة ، ومعناها القوة المسعدة ؛ وتصير الأمّ ، ومعناها التكملة الالهية لصغارها وزوجها ونفسها .

ومهما تبلغ المرأة من العلم فالرجل أعظم منها بأنه رجل ، ولكن المرأة حقّ المرأة هي تلك التي خُلقت لتكون للرجل مادةَ الفضيلة والصبر والايمان ، فتكون له وحياً وإلهاماً وعزاء وقوة ، أي زيادة في سروره ونقصاً من آلامه .

ولن تكون المرأة في الحياة أعظم من الرجل إلا بشيء واحد هو صفاتها التي تجعل رجلها أعظم منها .

* * *

ومشيتُ من البيت الذي ألبسته الميتةُ معنى القبر — إلى القبر الذي ألبسَ الميتةَ معنى البيت . وأنا منذ مشيت في جنازة أمي — رحمها الله — لا أسير في هذا الطريق مع الأحياء ، ولكن مع الموتى ، فأتبع صديقاً ليس رجلاً ولا امرأة لأنه من غير هذه الدنيا ، وأمشي في ساعة ليست ستين دقيقة لأنها خرجت من الزمن ، ولا أرى الطريق من طرق الحياة لأنني في صحبة ميت ؛ وتصبح للأرض في رأيي جغرافية أخرى عمي الناس عنها لشدة وضوحها ، كالألوهية خفيت من شدة ما ظهرت .

يقولون : إن ثلاثة أرباع الأرض يغمرها البحر . أما أنا فأرى في تلك الساعة أن ثلاثة أرباع الأرض لا يغمرها البحر الذي وصفوا ، ولكن خضمٌّ آخر زخّار متضرب ، هو ذلك البحر الترابي العظيم المسمى « المقبرة » .

يقولون : ان الحياة هي ... هي ماذا ، وبحكم أيها المغرورون؛ أفلا ترون هذه الصلة الدائمة بين بطن الأم وبطن الأرض ؟

* * *

لعمري كيف تجعل هذه الحياة للناس قلوباً مع قلوبهم ، فيحن المرء بقلب ، ويعمل بقلب آخر ؛ يعتقد ضرر الكذب ويكذب ، ويعرف مَعرّة الاثم ويأثم ، ويوقن بعاقبة الخيانة ثم يخون ؛ ويمضي في العمر منتهياً الى ربه — ما في ذلك شك — ولكنه في الطريق لا يعمل إلا عمل من قد فرّ من ربه ...

هبت الريح في السحر على روضة غناء فطابت لها ، فعقدت عُقدتها أن تتخذ لها بيتاً في ذلك المكان الطيب لتقيم فيه . . . يالها حكمة من التدبير ! تزعم الريح الاقامة على حين كلُّ وجودها هو لحظة مرورها ، وتجلم بالقرار في البيت وهي لا تملك بطبيعتها أن تقف .

يالها حكمة سامية ! لا يسكنها من المعنى إلا أسخفُ ما في الحُمق !

* * *

همد الحي وانطفأت عيناه ، ولكنه تحرك في تاريخه مما ضيق على نفسه أو وسّع ، وأصبح ينظر بعين من عمله إما مبصرة أو كالعمياء ؛ فلو تكلم يصف الحياة الدنيا لقال : ان هذه النجوم على الأرض مصابيح مأتم أقيم بليل . وما أعجب أن يجلس أهل المأتم في المأتم ليضحكوا ويلعبوا !

ولو نطق الموتى لقالوا : أيها الأحياء ، ان هذا الحاضر الذي

عمر فيكون ماضيكم فى الدنيا هو بعينه الذى يكون مستقبلكم فى الآخرة ، لا تزيدون فيه ولا تنقصون . وإن الدنيا تبدأ عندكم من الأعلى الى الأدنى ، من العظماء الى الفقراء ؛ ولكنها تنقلب فى الآخرة فتبدأ من الفقراء الى العظماء ؛ وأنتم ترسمونها بخطوط المطامع والحظوظ ، ويرسمها الله بخطوط الحرمان والمجاهدة . ان التام على الأرض من تم بمتاعها ولذاتها ، ولكن التام فى السماء من تم بنفسه وحدها .

* * *

يا أسفا ! لن يقول الميت للحى شيئا ، ومن يدرى ؟ لعلنا ونحن نلحد للموتى وننزلهم فى قبورهم يرون بأرواحهم الخالدة أننا نحن موتاهم المساكين ، وأننا مدفونون فى القبر الذى يسمونه « الكرة الأرضية » ! وهل الكرة الأرضية من اللانهاية إلا حفرة يرجل نملة لتُدفَن فيها نملة . . .

الحياة . أتريد أن تعرفها على حقيقتها ؟ هى المهمات الكثيرة التى ليس لها فى الآخر إلا تفسير واحد : حلال أو حرام .

* * *

ورجعنا مع الصديق الى بيته ، وله خمسة أطفال صغار لو أنهم هم الذين انتُزعوا من أمهم لترك كل واحد على قلبها مثل الكواة المحمى عليها فى النار الى أن تحمر . ولكن أمهم هى التى نزعت منهم ، فكان بقاؤهم فى الحياة تخفيفاً لسكرة الموت عليها . وغشيتها الغشية فماتت وهى تضحك ، إذ تراهم نائمين تحت جناح الرحمة الالهية الممدود ، وقالت : إنها تسمع أحلامهم ، وكانوا هم عقلها فى ساعة الموت !

تبارك الذى جعل فى قلب الأم دنيا من خَلْقه هو ، ودنيا من خَلْق أولادها !

تبارك الذى أثاب الأم ثواب ما تعانى ، فجعل فرحها صورة كبيرة من فرح صغارها !

* * *

وجاء أكبر الأطفال الخمسة وكأنه ثمانية أرطال من الحياة ، لا ثمانية أعوام من العمر ؛ جاء الينا كما يجىء الفزع لقلوب مطمئنة ، إذ كان فى عينيه الباكيتين معنى فقدم الأم !

وطفت عليه الدموع فتناول منديله ومسحها بيده الصغيرة ، ولكن روحه اليتيمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معانىَ يُتْمِها !

وظهر الانكسار فى وجهه بعبّر ببلاغة أنه قد أحس حقيقة ضعفه وطفولته بازاء المصيبة التى نزلت به ؛ وجلس مستسلماً تترجم هيئته معانىَ هذه الكلمة : « رفقاً بى ! »

ثم تطير من عينه نظرات فى الهواء كأنما يحس أن أمه حوله فى الجو ولكنه لا يراها .

ثم يرخى عينيه فى إغماضة خفيفة كأنما يرجو أن يرى أمه فى طَوِيّته .

ولا يصدق أنها ماتت ؛ فان صوتها حى فى أذنيه لا يزال يسمعه من أمس .

ثم يعود الى وجهه الانكسار والاستسلام ، ويتململ فى مجلسه فينطق جسمه كله بهذه الكلمة : « يا أمى ! »

* * *

أحس — ولا ريب — أنه بِمَضْيعةٍ حدودها الحياة ، لأن الوجود كان أمه .

ولمس خشونة الدنيا منذ الساعة ، بعد أن فقد الصدر الذى فيه وحده لين الحياة ، لأن فيه قلب أمه وروحها .

وشعر بالذل ينساب الى قلبه الصغير لأن تلك التى كان يملك فيها حق الرحمة قد أخذت منه وتركته بلا حقٍّ فى أحد ، وليس لأحدٍ أمان .

ولبسته المسكنة لأن له شيئاً عزيزاً أصبح وراء الزمان فلن يصل اليه .

ولبسته المسكنة لأنه صار وحده فى المكان ، كما هو وحده فى الزمان .

وارتسم على وجهه التعجب ، كأنه يسأل نفسه : « اذا لم تكن أمى هنا ، فلماذا أنا هنا ؟ ! »

ثم تفرغرت عيناه فيخرج منديله ويمسح دمعه بيده الصغيرة ، ولكن روحه اليتيمة تأبى الا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معانىَ يُتْمِها !

* * *

ونهض الصغير ولم ينطق بذات شَفَة . نهض يحمل رجولته التى بدأت منذ الساعة .